من قضايا التأصيل الاسلامي لمناهج علم النفس في الجامعات الاسلامية

ووقفات مع أبي زيد البلخي(مقتطفات)

Some Issues Concerning the Islamization of the University
h Reference to the Contribution Psychology Curricula wit of an Early
Muslim Scholar AbËZayd al-BalkhÊ

www.arabpsynet.com/Documents/DocBadriConcerningIslamization.pdf

مالك بابكر بدري *
malik1932@yahoo.com

ملخص الدراسة

يناقش هذا البحث المبررات الفكرية والعقائدية للتأصيل الإسلامي لعلم النفس. فما من أمة اهتمت بتنشئة شبابها على التمسك بقيم حضارتها إلا وقامت بصياغة علم النفس على أساس قيمها وتصورها للإنسان والكون والحياة. لذلك نجد الجامعات الكاثوليكية في الغرب قد رفضت الانصياع لنظريّات علم النفس الغربي وممارساته التي لا تنسجم مع فكرها الديني. كما قامت الأنظمة الشيوعية بما في ذلك الصين حتى الآن بإعادة صياغة علم النفس بما يتلاءم مع فكرها. وحتى علماء النفس في أوروبا ضاقوا ذرعًا ببعض ممارسات علم النفس الأمريكي. إذن فالتأصيل الإسلامي لعلم النفس قد أصبح فرضًا عينيا على النفسانيين المسلمين. ثمّ انتقل البحث إلى مناقشة التصورات المختلفة لحركة التأصيل الإسلامي الحديثة مبيّنًا اختلاف العلماء في تعريف مصطلح "الأسلمة"، وما تمخض عن ذلك من تطبيقات متناقضة. فبعضهم لا يرى في الأسلمة إلا الدعوة إلى الإسلام ونبذ كل ما أتى به الغرب من فكر نفسي واجتماعي، ومنهم من نظر إلىالتأصيل الإسلامي بوصفه أداة لتقدم الأمة الإسلامية والتخلص من المعوقات التاريخية وتقديس الماضي كي تنطلق الى رحاب التقدم العلمي وكأنّه الغاية المثلى للأمة. بعدها قدّم المؤلف مفهومه للتأصيل الإسلامي المتزن الذي يقوم على أربعة عناصر أو مفاهيم للأسلمة ليؤدي كل عنصرٍ منها مهمته في أحد جوانب التأصيل المهمة.

الكلمات المفتاحية: علم النفس، أسملة، التأصيل، البلخي.

Abstract

"Islamization" as applied to psychology and to give the necessary justifications for its significance. Psychology is a very important discipline in shaping the attitudes, beliefs and ethical behavior of young learners. That is why no group or nation would accept to teach its students modern Western psychology without adaptation unless it subscribes to the Western worldview of secular humanism. For this reason, we see that the Catholic Universities inThe Western world refuse to adopt the modern Western curricula of psychology without 'Christianizing' them. Furthermore, we see that communist countries such as the Chinese and the old Soviet Union refuse to adopt Western psychology

because of its capitalistic disguised message. We are even seeing today British and French psychologists irritated by theAmericanization of their graduates though they are all Western countries only separated by the Atlantic Ocean. This leads us, as Muslim psychologists, to realize the importance of the cultural and Islamic adaptations of Western psychology. But to be able to Islamize, we shouldagree on what the term means. That is why the author discussed this issue in detail showing how a truncated or an overgeneralized conceptualization of this term can lead to limited or confused aspects of Islamic adaptation of psychology. Following this, the author gave his opinion on how a balanced approach on the Islamization of psychology should be presented

Keywords. *Psychology, Islamization, grounding, al-Balkh*

مقتطفات

لا يشك عاقل في أنّ لعلم النفس الغربي تأثيرًا كبيرًا في تشكيل مفاهيم الدارسين ونظر تهملأنفسهم ولبيئتهم ومستقبل حيا م حتى أطلق بعض علماء الغرب تسمية للقرن العشرينبقرن علم النفس

*** ***

قال آخرون إنّ علم النفس هو الدين الجديد للغرب الأوروبي الذي حلّ محل الكنيسة وصار علماؤه بمثابة الكهنة والقساوسة في معابد العلمانية وعبادة الذات

*** ***

حرصت الدول التي تم بتنشئة شبابها على التمسك بقيم حضاراتها على تأسيسعلمٍ للنفسِ يقوم على ركائز قيمها وفكرها أو إعادة صياغة مقررات علم النفس الغربي قبلأن تدرّس في جامعاتها ومدارسها

*** ***

إذا كان الروس والصينيّون قد رفضوا نقلَ العلوم النفسية الغربية حفاظًا علىمعتقداتهم الماركسية، وإذا كان الكاثوليك قد ابتدعوا علم نفس لا يتعارض معفكرهم الديني، وحتى الأوروبيون أنفسهم خافوا على ضياع ثقافتهم القومية منالتأثير الأمريكي مع أنّ الحضارة الغربية لا تختلف كثيرًا بين ضفتي المحيط الأطلسي،فما بالنا نحن أساتذة علم النفس المسلمين نقدم لطلابنا فكر الحداثة الغربيةالعلماني مُن دسا في نظريات علم النفس الغربي وتطبيقاته دون تحريف أو تأصيلٍ أوأسلمة

*** ***

إنّ بعضنا ليصرّ على ترديد أفكارٍ قد تجاوزها أهلُها في الغرب، كأن يقولوا بأنّ علم النفس علم أصيل يقوم على المشاهدة الدقيقة كغيره من العلومالتجريبية، فليس للدين بزعمهم ولا للنواحي الأخلاقية دخل فيه، فهو كبقية العلومأداة قد يستخدمها الإنسان للخير أو الشر

*** ***

مثل هذا القول لا يقول به إلاجاهل بتخصصه النفسي وجاهل بالإسلام بوصفه منهجً ا متكاملا للحياة يصيغكيان المؤمن من جميع النواحي المعرفية والعاطفية والروحية

*** ***

هو جاهل بتخصصه النفسي لأنّ أهل هذا العلم في الغرب قد اعترفوا الآن بأنّ تخصصهم لا يملك القدرة على عالمية التطبيق لأنّه في الحقيقة علم غربيالنزعة و المنشأ و ليس بعلمٍ تجريبيٍّ لا يتأثر بالبيئة التي نشأ فيها

*** ***

إنّ العارفينمنهم بحدود علمهم النفسي قد انتقدوا بحدّة أولئك الذين يدّرسون علم النفسالغربي في جامعات دول العالم الثالث دون تعديلٍ أو تغيير، واتهموهم بأنهمبتدريسهم دون تأصيل إنما يقومون بعملٍ غير أخلاقي، وبأ م يؤدون دور العملاءلبث الفكر الغربي بين شباب بلدانهم

*** ***

تقوم أمريكا والدول الغربية بتدريب أساتذة علمالنفس القادمين من العالم الثالث دون النظر في ملاءمة ما يدرسون لحاجة بلدا م لهذه العلوم النفسية الغربية مما يجعل الاستمرار على هذا النمط بمثابة الاستعمار الفكري. الجديد لشباب هذه البلدان

*** ***

إنّ التأصيل الإسلامي لعلم النفس – في رأينا – فرض على كل نفساني مسلم وأنّ من لايهتمّ به فيدرس مادته من الكتب الغربية أو ترجمتها للعربية قد يكون آثما. وربما يتحمّل إثممن يضلون السبيل من طلابه بسبب تأثرهم بالفكر الغربي العلماني الذي قدّمه لهم كذباًعلى أنه علم ثابت وحقائق مطلقة

*** ***

تزداد المسؤولية كلما كان المدرس أكثر علمًا وقدرةعلىً التأصيل. فحديث العهد بالتخرج بشهادته العليا ليس كمن وصل إلى درجة الأستاذيةوتعمّق في كشف زيف كثير من نظريّات علم النفس وممارساته واطلع على الانتقاداتوتضارب الأفكار بين علماء النفس الغربيين أنفسهم

*** ***

من أهم الأسباب في قصور هذه المقاربة في أسلمة العلوم الغربية ذاتالفلسفة الإلحادية بالشكل الذي نحبذه أنهّا بدأت بالج وانب الفلسفية ا رّدة سعيًا بذلكيتنزل من (paradigm) إلى التوصل إلى نظرية شاملة للأسلمة تصبح بعد ذلك نموذجًاعلياء التجريد إلى واقع أسلمة التخصصات الاجتماعية والإنسانية الغربية كعلمالاجتماع وعلم النفس وغيرهما

*** ***

لو أن الجهود بذلت منذ بداية هذه الصحوة الأكاديميةقبل ثلاثين سنة في سبيل

وضع كتب جامعية من منظورٍ إسلامي في العلوم المحددةوتوزيعها على جامعات العالم الإسلامي بعد ترجمتها إلى اللغات المختلفة، لوجدنا أنفسنا اليوم أمام أجيالٍ من العلماء الشباب المسلمين المؤمنين ذا التأصيل الإسلاميلتخصصا م ولوجدناهم قد قاموا بتحديث الكتب التي درسوها وإعادة صياغتهاللأجيال القادمة

*** ***

إنّ النظريّات والممارسات في علوم النفسوالاجتماع لا تتبدل بشكل انقلابي حتى لو ثبت فشلها فيما ادعت أ ا تنجح في فعله،وإنما يتم تحديثها وتبقى جنبًا إلى جنب مع النظريّات و الممارسات الأكثر نجاحا

*** ***

لقد ثبت فشل نظريّات فرويد التحليلية وتطبيقا ا في العلاج النفسي، ولكنّها مع ذلكتدرس للطلاب ولها معاهدها الخاصة والمتحمسون لها من النفسانيين

*** ***

قد رأيت أن أقدم في هذا البحث تصوري المتكامل لأسلمة علم النفس وصياغة مقرراته الجامعية، أركز فيه على المسائل المهمّة مجتنبًا المغالاة والمبالغة فيالتنظير مع تقديم أمثلةٍ عملية للتأصيل

*** ***

كشف الجوانب العلمانية والتصور المنحرف لطبيعة الإنسان في نظريّات علمالنفس الغربي وتطبيقاته

*** ***

إنيّ لأعجب من مرشد نفسي يعترف له زبونُه بفعل الفاحشة وعقوق الوالدين والإلحاد وهولا يحرك ساكن ا، ظنا منه بأنه يمارس "العلم" الإرشادي النفسي الذي يأمره بعدم التدخل فيالجوانب الأخلاقية لعملائه ولا يدري أنّ العلماء في الغرب بدأوا يتراجعون عن هذا الحيادالأخلاقي

*** ***

الطالب الذي يقرأ لما قاله فرويد ويستمعإلى محاضرة أستاذٍ يؤكد فيها أنّ التحليل النفسي قد أثبت أنّ الكبت وحتى الكظم الجنسيسوف يؤدي بصاحبه إلى المرض النفسي وهو قد امتنع عن الزنا رغم إلحاح الشهوة عليهمن أجل تحريم الإسلام له سوف يجد نفسه في صراعٍ بين تحريم الإسلام وما يظن خطأً أنّ"العلم الحديث" قد أثبته

*** ***

الطالب في مادة علم النفس الفسيولوجي أو علم النفسالوراثي الذي يقرأ المراجع الغربية التي تقول زورًا وبهتاناً إنّ هناك أدلةً علمية على أنّ للشذوذالجنسي واللواط أسسًا وراثية في الجينات والهورمونات قد يؤدي به ذلك للشك في العدلالإلهي

*** ***

إنّ هذا التفريق بين شقي علم النفس: ذلك الذي تسنده الأبحاث التجريبية

غيرالمنحازة وذلك القائم على جُرُفٍ هارٍ، لهو أمر عصيّ

*** ***

إنّالنظرة الثاقبة لعلم النفس الغربي الحديث لتدعونا إلى الاقتناع بأنّه ليس بعلم ذي طبيعةٍواحدة. فهناك الج وانب التي امتزج فيها علم النفس بالدراسات العلمية التجريبية البحتةمن مثل علم النفس الفسيولوجي والسيكوفيزياء ودراسات الإدراك الحسّي وعلم النفسالإحصائي

*** ***

هذه قد لا تحتاج إلى كثير تأصيل أو تغيير ولا تعتمد كثيرًا على تصورات غربية إلحادية لطبيعة الإنسان ودوره في هذه الحياة

*** ***

لكن ما تبقى من الكم الهائل لهذا التخصص لا يعدو في كثيرٍمن جوانبه أن يكون نظريّات وتطبيقات لفكر الحداثة الغربية وتصورا ا المنحرفةلطبيعة الإنسان وعلمانيتها القائمة على إنكار وجود الخالق عزّو جلّ أو سلبه من
هيمنته على عبيده من البشر

*** ***

كان لزاماً على واضعي مقررات علم النفس وأساتذته أن يوضحوا الفروق بين ما هو علمي وما هو ادعاء للعلمية، وبين ما يستند إلى إثباتٍ تجريبي حقيقي وما يقومعلى الفلسفة الوضعية وأهواء الرجال. ومن الضروري أن يكون ذلك توضيحًا لا لبس فيه

*** ***

أنّ ما يقرره أساطين علم النفس الغربي من مناهج أو مدارس نفسية لاتستند إلا على تصورا م الخاصة عن طبيعة الإنسان. وهذا التصورٍ لطبيعة الإنسان لكلمؤسسٍ لمنهجٍ من المناهج يصبح حجر الزاوية لنظريّاته وممارساته العملية.

*** ***

أن يوضحوا لطلا م أنّ فرويد وروجرز وواطسن وغيرهم منأصحاب المناهج والمدارس النفسية لم يدخلوا في مختبرات تجريبية قاموا فيها بشتى التجاربالعلمية ليخرجوا لنا باكتشافات محددة عن طبيعة الإنسان. فما يقدمونه لنا في هذا الموضوعلا يعدو أن يكون من بنات أفكارهم ومن تأثير حضار م وحتى من تأثير حيا م الشخصيةوتربية آبائهم لهم ومن مشاكلهم النفسية

*** ***

أنّ الدراسات الغربية الحديثةقد كشفت أنّ فرويد عندما كتب نظريّاته الجنسية الفجّة كان يسطّرها وهو واقع تحت. تأثير إدمانه على الكوكايين، واقرأ إن شئت ما كتبته إليزابيث ثورنتن في هذا الصدد

*** ***

بالرغم من قولهم إنّ الإنسان خيّر بطبيعته، إلا أنّ هذا الخير المزعوم لا علاقة

له بأيّفكرٍ أخلاقيٍّ أو دين. فيمكن إقناع العميل الذي يطلب العلاج الإنساني بأن يحقق ذاته بأنيكون ملُحدًا "صالحًا"، أو شاذا جنسيا ملتزما. يجب أن يكون مثل هذا النقد للفكرالإنساني للمرشدين النفسيين المسلمين واضحًا وقويا حتى لا ينزلقوا في أفكار قوم تبُّع.

*** ***

جاءت بعدها السلوكية بثورة عارمة غايتها أن تجعل علم النفس تخصصًا علميا تجريبيا فيلتحق بالعلومالدقيقة كالفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء فسخرت من نظريات التحليل النفسي وتركيزهاعلى اللاشعور ودوافعه الجنسية العدوانية واستبدلت إله اللاشعور الفرويدي هذا بإله البيئةوالتعلم لأنّ البيئة كما يعتقدون هي العامل الوحيد في صياغة الشخص، وما الدينوالعقائدومحبة الأوطان والآباء إلاّ أوهام تكونت بسبب ما تقدمه البيئة والحضارة من ثواب وعقابوما أو ما يسمونه من تدعيم إيجابي أو سلبيالإنسان في نظرهم إذن إلاّ كورقة جافة سقطت من شجرة ب ا رياح البيئة لتحملها إلىحيث شاءت فلا مكان لوحي أو دين أو حقيقة ثابتة.

*** ***

ليس في فكر السلوكيين أيّ احترامالحقيقة روحية، وعلى الطلاب أن يدرسوا في مقررا م أنّ السلوكية في علمانيتها لا تختلفعن الفرويدية ولا عن إنسانية روجرز إلاّ من حيث طريقتها في إنكار الحقائق الدينيةوالروحية

*** ***

هيمن منظور المدرسة السلوكية لنصف قرن من الزمان على علم النفس بكل فروعه، ووجد دفعةً قويةً من نجاح أساليب علاجه للمخاوفالاضطرابات البسيطة التي يمكن وضعها في قالب المثير والاستجابة (phobias) المرضيةكالخوف من الأماكن العالية أو الخوف من المواقف الاجتماعية الضاغطة أو العجز الجنسي

*** ***

بعد أن كان المرضى يقضون السنين الطوال في علاج خوفهم المرضي من الحشرات أوركوب الطائرات أو عجزهم الجنسي بالتحليل النفسي الذي ظل يوهمهم بأنّ الأسباب الحقيقيةلأم ا رضهم تقبع في ظلمات لاشعورهم وأنّه لا سبيل لعلاجهم إلاّ باستخراج عقدهم بمساعدة المحلل من اللاشعور إلى الوعي، تمكن هؤلاء من التخلص من أعراضهم بعد أسابيع قليلة منالعلاج السلوكي الذي يعتمد على التعلم الشرطي البافلوفيوالإسكنيري والذي لا يرى سببًا لربطالأعراض النفسية باللاوعي أو بأمور رمزية فيعالجها بشكل مباشر

*** ***

على الرغم من نجاح السلوكية في علاج الخوف المرضي وما شا ه من اضطراباتبسيطة، إلا أنه قد ظهر فشلها في علاج المشاكل التي تنبع من التصورات الخاطئة للمريضعن نفسه وبيئته

*** ***

أسلمة علم النفس لإظهار الإعجاز في خلق الله تعالى للإنسان من النواحيالجسمية والنفسية والروحية

*** ***

إنّ البرهان لساطع على فشلعلم النفس الغربي الذي رفض الإيمان بالله وأنكر وجود الروح و"حَيْوَنَ " الإنسان وملكهّمقاليد السلطة الأخلاقية، قد فشل فشلاً ذريعًاً في حلّ مشاكل الغربيين أو حتىالتخفيف من حدّ ا

*** ***

جاءت الثورة المعرفية لتعيد لعلمالنفس الغربي بعضًا من اتزانه حيث أعادت له "عقله" و"شعوره" فأفاق من لوثة الجنسالفرويدي والتصور الآلي للسلوكية. فلم يعد لفرويد في كثيرٍ من جامعات الغرب من ذكر إلاًّفي تاريخ علم النفس الحديث وفي مكانته بوصفه مفكرًا وفيلسوفا.

*** ***

نلاحظ تحولاً في اتجاه علم النفس الحديث إلى الجوانب الإيجابية في الإنسانوفي مقدمتها ما يسمى "بعلم النفس الإيجابي" الذي ت برّم من تركيز علم النفس خلال القرنالماضي على النواحي السلبية والمرضية عند الأفراد

*** ***

"مما يدعو إلى التفكر حقا هذا الإعجاز المحيّر في خلق الله لدماغ الإنسان إذ يقول علماء تشريح الجهاز العصبي ووظائفه أن أكثر الأشياء غموضًا في كون الله الواسعليس هو بكوكبٍ أو نجم يبعد عنا بآلاف السنين الضوئية ولا تلك الفيروسات التيفشل العلم في شفاء المرضى منها ولكن أكثرالمخلوقات غموضاً وتعقيداً في الكونهو هذا الكائن الصغير الذي لا يزيد وزنه على الثلاثة أرطال والذي يحمله كلٌ منآ فيمكانٍ حصين داخل جمجمته

*** ***

بهذه الكفاءة نجد أن كل خليةٍ عصبية واحدة تتلقي آلاف الاشتباكات مع الخلايا الأخرى وتتلقى هذه الخلايا ملايين الإشارات العصبيه الكهربائية والكيميائية(الكيموكهربائية) في كل ثانية من حياة الإنسان فسبحان الذي برأ هذه المعجزة خلقاً بعد خلقٍمن نطفةٍ في جوف ظلماتٍ ثلاث.

*** ***

الأسلمة لإثبات حقيقة أنّه بدون تأصيل إسلامي قد تصبح أغلب ممارساتعلم النفس الغربي التطبيقي قليلة الفائدة، أو لا فائدة منها إن لم تكن ضارة

*** ***

من ذكرياتي المؤلمة عندما كان التحليل النفسيالفرويدي في قمة سيطرته على النفسانيين المسلمين أنّ شباب ا متمسكين بدينهم أصيبوا باضطراباتٍ مختلفةٍ كالقلق والاكتئاب ذهبوا إلى متخصصين في العلاج النفسي التحليليفشخصوا لهم أسباب اضطراباتهم بأنّها مرتبطة بكبتهم الجنسي وامتناعهم عن ممارسة

الجنسونصحوا بعضهم باتخاذ صديقات ونصحوا آخرين بالخضوع لجلساتٍ طويلة من التحليللاستخراج ما خفي عنهم من دوافعهم اللاشعورية الجنسية منها كما - زعم النفساني -كبت أحدهم لرغبته الجنسية في مضاجعة شقيقته. فساءت أحوال بعضهم ودخلوا في أزمة روحيةدينية كانت أشدّ على بعضهم من اضطرابه الذي أراد أن يجد له علاجا

*** ***

كان بعض التحليليين في بلادنا يحلل لبعض مرضاه ما كان حرامًا فيالدين بقصد علاجهم من شعورهم بالذنب!

*** ***

هناك أساليب في العلاج النفسي أقلّ ضررًا على العملاء المسلمين، لكنّها قليلة الفائدة، بل قد تكون في بعض الأحيان عديمة الفائدة. مثلاً الإرشاد النفسي غير المباشرالذي يركز على نشاط العميل بقصد اكتشافه لتحقيق ذاته دون المساس بعقيدته وفكرهوأخلاقه حتى ولو اعترف بعمل أشياء لا يقرها دين ولا حضارة أخلاقية.

*** ***

كثيرًا ما يتهكم بعض متخصصينا النفسانيين على الباحثين في إسهامات الأطباء والعلماء الأقدمين في ميدان علم النفس ووصولهم إلى الممارسات المعرفية ذا ا التي وصل إليها علمالنفس الحديث بعد تيهٍ زاد على السبعين أو الثمانين عامًا قضاها في تحليل الشعورودراسته بالاستبطان، ثمّ في التحليل النفسي الفرويدي وما شا ه من مناهج، ثم السلوكية المتطرفة، حتى رسى أخيرًا على شاطئ علم النفس المعرفي

*** ***

تجد مؤرخي علم النفس الغربي عن قصدأو دون قصد تتجاهل كل إسهامات علمائنا وأطبائنا المسلمين من أمثال الغزالى وابن سيناوالرازي والبلخي والمحاسبي وغيرهم من العباقرة. فتاريخ علم النفس والعلوم التجريبية الأخرىفي كتبهم يبدأ بفلاسفة الإغريق القدامى وأطبائهم، ثم يقفزون عدة قرون إلى حضارتهمالمعاصرة

*** ***

أكدّ (مانويلفوكس) بكلقوة أنّ

"علىعلماء الغربأنيتّبعانقوليربطواتاريخعلومهمبتاريخالحضارة الأوروبية التي جاءتمنإسرائيلواليونانالقديمتينوأنيشطببكلالقوةكلماعدا ذلكمهماكانرسوخهتاريخيا

*** ***

ذكرت في بحث نشرته في مجلة "الطب النفسي الماليزية" أن النفسانيين المسلمين لو تواضعوا (behaviour therapy) وقرأوا خطوطة البلخي هذه بتدبر لكانوا هم الروّاد للعلاج السلوكىولما أضاعوا ، (cognitive therapy) وللثورة المعرفية الحديثة في ميدان العلاج النفسيعشرات السنين في التقليد الأعمى لنظريات

وممارسات غربية فاشلة أو قليلة الجدوىقامت على الفكر الإلحادي الرافض لروحانية الإنسان

*** ***

استطاع البلخي بحسه الإكلينيكي العبقري أن يفرق بين العصاب أو المرض النفسي(neurosis)والذهان أو المرض العقلي (الجنون)psychosis ولعله الرائد الأول في ذلك.

*** ***

يجبعلينا أن نفرّق بين الحقيقة الإسلامية بأن الله خلق الإنسان من طين و نفخة إلهيةروحية - كما أشار البلخي في أكثر من موضع في كتابه - وأنّ هذه النفس لطيفةربانية تفارق الجسد عند الموت، وبين التصور المادي لكون للإنسان نفس ليست لهاأو Ego أو أ ا نواة لشخصيته Self كيان مستقل محدد بل هي بمثابة شعوره بذاتهأيّ تصور علماني آخر.

*** ***

"الأعراض النفسانية هي مثل الغضب والغم والخوف والجزع وما أشبهها... وهي ألزمللإنسان وأكثر اعتراءً له من الأعراض البدنية، وذلك أنّ الأعراض البدنية قد يسلمالواحد... منها حتى لا يكاد يعرض له في أكثر أيام عمره منها أو من عامّتها شيء.فأما الأعراض النفسانية فإن الإنسان مدفوع في أكثر أوقاته إلى ما يتأذى به منها إذليس يخلو في كافة أحواله من استشعار غمٍّ أو غضب أو حزن (البلخي)

*** ***

أما النوع الثالث فهو ذلك الاكتئاب أو الحزن الداخلي endogenousdepression)) الذي يحدث أساسًا بسبب اختلال كيميائي في هورمونات الدماغ. وقد ينزل هذا النوع من الحزن على صاحبه دون مقدمات كنزول السحابة السوداء دون أن يعرف لهذاالحزن و الغمة و قلة النشاط و فقدان الشهية للطعام سببًا أو قد يكون السبب تافهًا بالنسبةلعظم الإصابة. وهذا النوع من الاكتئاب يحتاج إلى علاج عقاقيري مركز و في بعض الحالاتالشديدة إلى علاج كهربائي

*** ***

إن اكتشاف البلخي لهذه الفروق الدقيقة بين هذه الأنواع الثلاثة للحزن والاكتئابقبل أكثر من عشرة قرون لأمر يدعو إلى الدهشة والإعجاب الشديدين. فلم يتحدثعالم شرقي أو غربي عن مرض نفسي أو عقلي تظهر أعراضه خارجيا بسبب العواملالبيئية أو داخليا بسبب اختلال في داخل الجسم إلا في أواخر القرن التاسع عشرتصنيفه Kraepelin Emil الميلادي وأوائل القرن العشرين عندما نشر إميل كريبلينالمشهور للأمراض النفسية والعقلية

*** ***

يبدو واضحًا من كتاب البلخي أنه لا يحبذ العلاج النفسي المعرفي للحزن والاكتئاب الداخلي بل يترك علاجه للطب الجسماني بالأدوية والأغذية. ولئن استخدمالعلاج النفسي لهذا النوع من الحزن الداخلي السبب فالتركيز إنما يكون كما يقول علىما يجلب السرور من المؤانسة والسماع، أي الاستماع إلى الأغاني والألحان الشجية التيتحرك الوجدان و تدخل السرور إلى القلوب المكلومة

*** ***

ذلك الأخصائي الرائد هو آرون بكAaron Beck الذي يقول ما ملخصه:

"إنّ إصابة الناس باضطرابات نفسية لا تأتي بسبب عوامل غامضة (لاشعورية) كمايزعم فرويد في نظريّاته التحليلية، بل بسبب مسائل عادية مثل تعلم واكتساب العاداتالمرضية أو الاستنتاجات الخاطئة من معلومات غير صحيحة. وهذه العوامل تؤديبالشخص حتماً إلى التفكير المغلوط غير المنطقي، وذلك بدوره يؤدي إلى الانفعالاتالنفسية المرضية كالقلق والاكتئاب. هذا لأنّ انفعال المرء تابعٌ لتفكيره ولما يقوله لنفسه.

*** ***

الدور الأساسي للمعالج النفسي المعرفي هو مساعدة المريض على استخدامقدراته الطبيعية في حلّ المشكلات للتعرف على تصحيح فكره والتخلص من سيطرة الأفكار السلبية وأن يستبدل ا أفكاراً ومشاعر عقلانية متسقة مع الواقع المعاش

*** ***

يؤكد البلخي أنّ التفكيرالخاطئ وما يتبعه من تصوراتٍ وانفعالاتٍ منحرفة هو المسؤول الأول عن إصابة الناسبالأعراض النفسية، وأن تبديل هذا الفكر هو الذي يتم عن طريقه العلاج وإراحة المضطربين من أعراضهم

*** ***

"وكما أنّ العلاج البدني إما أن يكون بشيء من داخل كالاحتماء والامتناعمما لا يجب تناوله ومد يده إليه، وإما أن يكون بشيء [من] خارج مثل ما وصفناهمن الأغذية والأدوية، كذلك معالجة النفس مما يعرض لها إما أن يكون شئ مندا خل وهو فكرة يثيرها الإنسان من نفسه فيقمع ا ذلك العارض ويسكن ذلكالهائج وإما أن يكون بشيء [من] خارج وهو كلام يعظه به غيره فينجع فيه ويعملفي تسكين الهائج" (البلخي)

*** ***

لا يكتفي (البلخي) في علاجه المعرفي بتصحيح الأفكار والتصورات، بل يذهب بعيداً حينما يقدمالنصح للأسوياء والأصحاء بأن يخزّنوا في عقولهم الوصايا الفكرية الصحية في حالسكينتهم وصحتهم النفسية ليستفيدوا منها إذا ألمّ م بعض الأعراض النفسية.ويقارن بين هذه الأفكار المستودعة في الذاكرة وبين خزانة العقاقير والأدوية التي يضعهاالأصحاء في بيو م ليستخدموها إذا أصا م طارئ من مرض أو حادث

*** ***

إن توقع كثير من المكاره ربما كان أشد من وقوعه، فإنّ المخاوف أكثرها غير ضار،ولذلك قالوا: أكثر ما تخافه لا يضرك، وقيل أكثر الروع باطله. ولذلك شبه الحكماء الأمور المخوفة التي يهاب الإنسان الاندفاع إليها بالضباب الذي يتولد على وجه الأرضفيخيل للإنسان من بعد أنّه جسم كثيف ليس فيه متنفس ولا عمل للبصر في إدراك. شيء من الأشخاص التي في حيّزه، فإذا داخله وجده شبيهاً بالهواء الذي فارقه" (البلخي)

*** ***

العلاج من الأعراض النفسية عند البلخيهو اتباع الأساليب المعرفية الحديثة نفسها التي تعتمد على كشف أخطاء تفكيرالمصاب وتناقضاته مع الواقع حتى تتبدل انفعالاته

*** ***

يؤكد البلخي، خلافًا لبعض المدارس النفسية المعاصرة، أنّ التنفيس عن الغضب لايساعد على تخفيف هذا العرض بل يزيد ناره حطبا. وهذا هو التصور الحديث لعلم النفسالمعرفي. ويشبه البلخي إهمال الفرد تغيير أفكاره ومشاعره الغضوبة في بداية الأمر بالشخصالذي أهمل اشتعال النار وهي خفيفة في بدايتها وتركها حتى عظمت وصعب إطفاؤها

*** ***

يبدو واضحًا من كتاب البلخي أنه لا يحبذ العلاج النفسي المعرفي للحزنبل يترك علاجه للطب الجسماني، endogenous depression والاكتئاب الداخلي بالأدوية والأغذية. ولئن استخدم العلاج النفسي لهذا النوع من ا لاكتئاب الداخليالسبب فالتركيز إنما يكون على ما يجلب السرور من الصحبة والمؤانسة والاستماع إلىالأغاني والموسيقى الشجية التي تحرك الوجدان و تدخل السرور إلى القلوب المحزونة

*** ***

أما علاج الحزن الاستجابي الذي تظهر أسبابه، فينصح فيه بخطة العلاج نفسها التي اتبعها بالنسبة لتسكين الخوف والفزع: علاج خارجي بالوعظ والتذكير، وعلاجداخلي معرفي يقوم على تبديل تفكير الحزين حتى يقتنع بأنّ مبالغته في الحزن تقوم علىفكر خاطئٍ قد يكون وبالاً عليه إذا لم يغيره

*** ***

إنّ مجرد تعريف البلخي وتصنيفه لوساوس الصدر وحديث النفس القسري كأحدالأعراض النفسية لهو من أغرب وأعظم الإسهامات التي قدمها لمعاصريه وسبق ا علم النفس الطبي بأكثر من تسعة قرون.

*** ***

هذا الاضطراب (الوسواس القهري) هو أكثر الأمراض النفسية إيذاءً للإنسان وأصعبها علاجا

*** ***

أما هذاالعرض الذي هو حديث النفس فإنه عرض خاص وربما سلم منه كثير

من الناس، ليس من جهة أ م يخلون من أحاديث النفس ووساوسها، فإنّ ذلك شيء مشترك لجميعالناس، ولكن من جهة أنّه لا يصيب كلا من هذا العرض ما يؤذيه ويشغله، وينغصعليه عيشه. وهذا العرض قد يوجد مرةً في الإنسان من قبل الطبع وما يقع في المولد.وتوجد فيه مرةً أخرى كالشيء العارض الذي لا يكون به عهد

*** ***

تأمل قدرة البلخي في ذلك الزمان الغابر على التوصل إلى أنالمرض الوسواسي القهري لا بدّ أن يكون له أسباب مشتركة بين العوامل النفسية والعضوية. كيف استنبط هذا الاكتشاف المهم؟ ثم كيف وصل إلى أن من العواملالعضوية العامل الوراثي الكامن منذ الولادة، وهو ما توصل إليه علماء اليوم

*** ***

تأمل تفريقه الدقيق بين الوساوس العادية التي تصيب كل الناس حتى وإن كانتمزعجةً لهم وتلك التي يتأذى ا المصاب بالعصاب الوسواسي القهري. وهذا يؤكد نظرتهإلى الأمراض النفسية على أنها صورة مبالغة لنفس الأعراض التي تصيب الأسوياء

*** ***

من الوصايا الخارجية المفيدة أيضاً أن يتجنب الموسوسالفراغ لأنه نظير الوحدة. فعليه أن يشغل نفسه بتعمق وبتركيز في الأعمال المحببة له وأنيبدل من نشاطه من عمل إلى آخر كلما شعر بالملل من نشاط معيّن

*** ***

إنّه على المصاب بالوساوس المتعلقةبصحته المرتبطة بخوفه المرضي من الموت أن يتدبر في سنن الله تعالى في الكون. فقدجعل الله لكل شيءٍ سببًا يكون مقدمةً لفساده

*** ***

إهمال التأثربالأعراض الوسواسية - كما هو معروف - هو من أنجع الوسائل لعلاجها أو على الأقلالتخفيف من حد ا.

*** ***

إن أطباء النفس والمتخصصين في العلاج النفسي من المسلمين لو قرأواالمخطوطة البلخي بتدبرٍ لكانوا هم السباقين للعلاج السلوكى والمعرفي الحديثين ولأنقذواعلم العلاج النفسي من التخبط والفكر المادي الغربي، ولكن للأسف الشديد مثلناكمثل العيس التي يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

رابط كامل النص/ http://journals.iium.edu.my/at-tajdid/index.php/Tajdid/article/view/292

*أستاذ سابق لعلم النفس والعلاج النفسي في جامعة الخرطوم والعديد من الجامعات في العالم الإسلامي؛ عضوالجمعية البريطانية لعلم النفس؛ عضو اللجنة الخاصة بالتقاليد الصحية والأساليب العلاجية بالمنظمة العالمية للصحة (1980-1984)،يشغل حاليا أستاذ كرسي ابن خلدون في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

ارتباطات ذات صلة

* * * * * * * * *

الكتاب العربي للعلوم النفسية

أزمـــــة علمـــــاء النفـــــس المسلميـــــن – مالـــــك بـــــدري (الســـــودان)

العدد 17 (2009 – 2010)

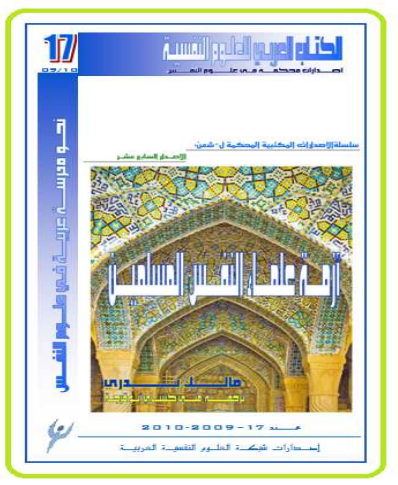

رابط شراء النسخة الإلكترونية

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_product=173&controller=product&id_lang=3

الفهـــرس و المقدمـــة (الرابـــط)

http://www.arabpsynet.com/apneBooks/eB17/eB17BM2009-Content.pdf

* * * * * * * * *

سلسلة الكتاب العربي " نفســـــــــــــانـــــــــي "

اصـــــدارات مكتبيـــــة محكمـــــة في علـــــوم وطـــــب النفـــــس

سلسلة " نفســـــــــــــانـــــــــي " على المتجر الالكتروني

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=16&controller=category&id_lang=3

سلسلة " نفســـــــــــــانـــــــــي " على موقع الشبكة

http://www.arabpsynet.com/apneBooks/index.eBooks.htm

بوستـــــــــــر الكتابالعربي " نفســـــــــــــانـــــــــي "

http://www.arabpsynet.com/AFP-PubBr/APF.NafssanyPubBr.pdf

سلسلة " نفســـــــــــــانـــــــــي " على الفايس بوك

https://www.facebook.com/The-Arab-eBook-of-Psychological-Sciences-217222165315189/

**** **** ****

دليـــــل الاصدارات السابقة

فهارس و افتتاحيات

من العـــدد 1 (2006) الـى العـــدد 20 (2012)

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_product=244&controller=product&id_lang=3

من العـــدد 21 (2012) الـى العـــدد 46 (2016)

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_product=245&controller=product&id_lang=3

* * * * * * * * *

دليل نشرة الرسالة الإخبارية الأسبوعية للشبكة

http://arabpsynet.com/menu.asp?link_c2=/Weekly/IndexNewsLetter.htm&current_c2=3

دليل المستجدات العربية في علوم و طب النفس

http://www.arabpsynet.com/Documents/DocIndexAr.htm

دليل أطباء و علماء النفس العرب

http://arabpsynet.com/menu.asp?link_c2=/HomePage/IstsGists.Ar3.HTM&current_c2=2

دليل المكتبة النفسانية العربية

http://arabpsynet.com/menu.asp?link_c2=/HomePage/BOOKS.ArLibr.htm&current_c2=4

دليل المعاجم النفسانية العربية

http://arabpsynet.com/menu.asp?link_c2=/HomePage/DictAr3.htm&current_c2=5

دليل المؤتمرات النفسانية العربية و العالمية

http://arabpsynet.com/menu.asp?link_c2=/HomePage/CongAr.3.htm&current_c2=6

دليل الجمعيات النفسانية العربية

http://arabpsynet.com/menu.asp?link_c2=/HomePage/ASS.Ar3.htm&current_c2=7

دليل الوظائف النفسانية العربية

http://arabpsynet.com/menu.asp?link_c2=/HomePage/JobsAr.3.0.htm&current_c2=8

أرشيف الشبكة (ملخصات ابحاث، دراسات، حوارات، وجهات نظر)

http://arabpsynet.com/menu.asp?link_c2=/HomePage/ISTGistArchivesAr.HTM&current_c2=2

www.arabpsynet.com

* * * * * * * * *

شبكة العلوم النفسية العربية ... نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني

http://www.arabpsyfound.com

اشتراكـــــــــــات الدعـــــــــم في اصدارات الشبكة

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=36&controller=category&id_lang=3

خدمات الاعلان بالمتجر الالكتروني

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=39&controller=category&id_lang=3